الأمير مولاي اليزيد ومسألة احتمائه بالحرم المشيشي

1789م – 1790م

"نموذج لتوظيف المجال المقدس لضرب السلطة المركزية"

د. معاذ البكوري

أستاذ باحث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، المغرب

الملخص :

يعد مولاي اليزيد من السلاطين العلويين القلائل الذين جهروا بالحرب ضد الأوربيين من الخصوم، إذ قام وحده، ومنذ الوهلة الأولى لتسلمه زمام الحكم بضريح مولاي عبد السلام بن مشيش، خلفا لوالده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بمهاجمة الموانئ المحتلة من طرف اسبانيا، وبسحق أهم رجالات الدولة، لإقصاء من اعتبرهم أشد الأعداء. ويظهر أنه بسبب قصر مدة حكمه التي امتدت من 1790 إلى 1792م، لم يلفت اهتمام المؤرخين والباحثين.ونحن في هذا المقال سنحاول أن نسلط الضوء على هذه الفترة القاتمة من تاريخ المغرب التي وظف فيها بامتياز قضية الاحتماء بالمؤسسات الدينية لضرب السلطة المركزية.

الكلمات المفتاحية: مولاي اليزيد; الحرم المشيشي; المجال المقدس; سيدي محمد بن عبد الله; المخزن.

Abstract :

Moulay al-Yazid is one of the few Alawite sultans who have spoken out against the Europeans against the adversaries. From the very first moment he took over the MoulayAbdulsalam bin Mesheish shrine, replacing his father, Sultan Sidi Mohamed Ben Abdallah, by attacking the occupied ports by Spain, The men of the state, to exclude those who considered them the most enemies. It seems that because of the short period of his reign, which extended from 1790 to 1792, did not draw the attention of historians and researchers. In this article, we will try to highlight this dark period in the history of Morocco, in which the issue of sheltering religious institutions was used to strike central authority.

من الوظائف التي شكلت ركيزة أساسية في تمثل جبل العلم للسلطة الرمزية، وظيفة الحرم أو المأمن المقدس. فقد مارس جبل العلم على الدوام هذه الوظيفة الحساسة حتى صارت في الاعتقاد الشعبي سلطة لا تنازعها في ممارستها أي سلطة أخرى مهما كان وزنها أو تأثيرها. وأثبتت الممارسة أن مجال هذا الجبل، وبالخصوص ضريح وليها وكيفما كان حجمه، ظل مجالا حرما وملاذا لكل معتصم مهما كانت دواعي التجائه أو اعتصامه حتى وإن كان جانيا أو مجنيا عليه [1].كما آوىجبل العلم بحرمه أمن الناس "تجاه كل صروف الخطر أو الخوف أو الجور، مهما كانت مصادرها : تجاه الطبيعة والجارح من الحيوان أو البشر. لكن أكثر أنواع الحماية وأشدها أثرا في الناس هي تلك التي تضع بين الفرد وبين السلطة حجابا" [2].سنحاول في هذه المقالة أن نتطرق إلى أهمية جبل العلم بالنسبة لمولاي اليزيد الذي اتخذه كمنطلق

لمعاكسة سياسات والده سيدي محمد بن عبد الله والتي ستؤول إلى بيعته بهذا الجبل بعد وفاة والدهسنة 1790م.

1 - الأصول التاريخية للحرم المشيشي

يعتبر الحرم العلمي (نسبة إلى جبل العلم) أو الحرم المشيشي (نسبة إلى ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش) من أكبر حرمات المغرب وأشهرها على الإطلاق، ويذهب بعض الباحثين، ممن لهم تمرس علمي بمجال الشرف والتصوف بالشمال الغربي المغربي، أن تأسيسه كان في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي بعد معركة وادي المخازن الشهيرة ضد الغزاة البرتغاليين [3]، وذلك نتيجة لتطور الشرف العلمي في الشمال الغربي وظهور الأشراف العلميين على رأس الحركة الجهادية، فاندرج ضمن الامتيازات التي منحتها السلطة السعدية للأشراف [4]. وهو الرأي الذي يتفق مع ما ذهب إليه باحثون آخرون ممن تجمعهم نسبة طينية بالشرفاء المذكورين، وفي حوزتهم ظهائر مخزنية تؤيد ذلك، نفذها لأسلافهم السلاطين السعديون أبناء أحمد المنصور المذكور [5].

ويتصل الحرم العلمي بالشيخ الصوفي، الولي الصالح، القطب أبي محمد مولاي عبد السلام بن مشيش (ت. 626 ه/ 1229م)، دفين جبل العلم في قبيلة بني عروس بإقليم العرائش، ويعود الفضل للشيخ الصوفي أبي محمد سيدي عبد الله بن محمد الغزواني (ت. 935ه / 1528م) في تنظيم زيارة ضريح مولاي عبد السلام بن

مشيش خلال إقامته بقبيلتي بني زكار وبني يدر عند أواخر القرن التاسع الهجري/ أواخر القرن 15م [6]. فقد مكث الشيخ الغزواني مدة إقامته بتلك القبائل الهبطية يزور ضريح الشيخ مولاي عبد السلام مصحوبا بأتباعه ومريديه مرة في كل سنة، فاشتهرت زيارة الضريح المذكور بواسطة تلاميذ الشيخ الغزواني في جيع نواحي المغرب، واستمر ذلك مع مطلع القرن العاشر الهجري إلى أيامنا هذه، وقبل ذلك كانت زيارته عادية ومقصورة على أحفاده [7].

وقد حظي الضريح العلمي منذ ذلك العصر المبكر بقدسية كبيرة، لما تقرر لدى الناس بكون الدعاء بإزائه محقق الإجابة، حيث نجد العلماء قبل غيرهم يتسابقون لزيارته علهم يظفرون ببركته، هذا فضلا عن زيارة الأمراء والأميرات له، وإغداقهم الأموال الوفيرة والهدايا السنية على الشرفاء القيمين عليه، وبذلك يكون العلماء والسلاطين قد أضفوا على زيارته طابع المشروعية، بل إن زيارة هذا الضريح باتت تعرف في الذاكرة الجماعية الشعبية ب"حج المسكين"، للتماثل بين جبل العلم ومكة المكرمة في توقيت الزيارة وطقوسها [8].

ويشتمل المقدس العلمي على جميع آثار الولي الصالح مولاي عبد السلام بن مشيش قمة الجبل، وتضم مغارة الخلوة، وجامع الملائكة، وعين البركة، وموضع ارتقاب الفجر، و"حجرة المسخوطين"، و"الحجرة البكاية" التي تبكي مقتل الولي، وعقبة الحيات، و" حجرة الحية المسوخة"، و"زطمة مولاي عبد السلام" [9]، إذ يمكن القول إن

"تراب الجبل وما ينبت فوقه، وما ينبع فيه من ماء، كان يعتبر في نظر عامة الناس مقدسا حلت فيه بركة الولي مولاي عبد السلام" [10].

وقد شكل الجبل "المقدس" مركز الحرم العلمي، ويعتقد أن مركز الحرم هو الحوش المحيط بالضريح، إلا أن الحرم التاريخي والعرفي شمل نطاقا أوسع تجاوز مساحة الجبل "المقدس"، وقد قدرت مساحة الحرم القديمة بنحو خمسين ألف هكتار، موزعة بين أربع قبائل جبلية متجاورة هي : بني عروس التي حازت معظم مساحة الحرم، وقبيلة بني ليث، وبني يسف وبني يدر، ويتحدد الحرم العلمي في هذه القبائل بالمداشر، وعددها اثنان وعشرون مدشرا حرميا [11].

وقد عينها وتكلم عنها بنوع من التفصيل خلال القرن الثامن عشر، المؤرخ النسابة أبو الربيع سليمان بن محمد الحوات العلمي الشفشاوني صاحب "الروضة المقصودة" [12]. وهي مداشر "كل منها من أجل من سكنها بالاحترام خليق، وبأن يمتاز بالتوقير كما خلا منهم حقيق، على حد تعبيره [13].

غير أن تلك المساحة سرعان ما تقلصت كثيرا مع مرور السنين، إلى الحد الذي لم تعد فيه تقدر منذ أواسط القرن العشرين سوى بثمانية آلاف هكتار، احتصرت من الخمسين ألف هكتار المتقدمة، التي كانت تحيط بقبيلتي بني عروس وسماتة أيام السلطان مولاي إسماعيل [14].

ويلاحظ أن تمثل الحرم في المجتمع الجبلي داخل هذه المساحة يقننه تشريع خاص مقتبس من الحرم المكي، متجدد بفعل الظهائر والرسائل السلطانية، ويتألف من ثلاثة بنود : لا يقربه المخزن ولا يطوف حوله، ولا يصطاد في وحش، و لا يقطع منه شجر. وفي العرف الشفوي : لا يدخله اليهود والنصارى [15]. وقد كان الأشراف أصحاب الحرم أكثر تشددا في هذا الصدد، فضلا عن رسوخ التقاليد الجهادية في المنطقة، مما جعل الحرم العلمي مجالا ممتنعا على الرحالة الأجانب، الذين زاروا المناطق الشمالية خلال القرن التاسع عشرن مثل الفرنسي شارل دوفوكو، والإسباني دي كويفاس، الذي فشلت رحلته إلى جبل العلم [16].

وزيادة على ذلك، تمتع الحرم العلمي بحماية السلاطين المتعاقبين على حكم المغرب، عن طريق ظهائرهم الشريفة الموجهة للأشراف العلميين، القاضية بتوقيرهم واحترامهم، وحماية من التجأ إليهم، ورسائلهم الموجهة إلى ولاة المنطقة الشمالية بتنفيذ الأوامر السلطانية وعدم التراخي في العمل بمقتضاها، وبهذه العناية ضمن الحرم المذكور حق الاستحرام والاستجارة لمن اضطر اللجوء إلى رحابه، فردا كان أو جماعة [17]. ومن الظهائر المؤسسة لحق الاستحرام بالضريح المشيشي ظهير السلطان مولاي إسماعيل للشرفاء العلميين، بتاريخ 26 جمادى الأولى عام 1121 ه / 3 غشت 1709م، والتي توعد فيه من يخرق عليهم الأمن والنظام من أعوان

السلطة بالعقوبة القاسية. وقد جاء ذلك بعدما نهبت الجيوش المخزنيةعزائب الشرفاء المذكورين وشددت عليهم الحصار بمحيط الحرم، ووفد الشرفاء على السلطان مستشفعين. وأصدر لهم السلطان الظهير الشريف المذكور، ليكون بيدهم حجة أمام قواد المخزن. جاء فيه بعد الحمد لله والصلاة على النبي : "يستقر هذا الظهير الكريم، والأمر المحتم الصميم، بيد حمالته شرفاء العلم أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، وغيرهم من إخوانهم أبناء عمهم، يتعرف منه وصيفنا سعيد الزيراري وغيره من قوادنا وولاة أمرنا المطاع بالله، أنهم لما وردا على عالي مقامنا سامحناهم، ورددنا عليهم مالهم، وأقررناهم على حرمهم المعهود، وأجريناهم على المألوف من عوائدهم، توقيرا واحتراما، بحيث لا تقرب لهم ساحة، ولا يطوف أحد حولهم أو بجانبهم بمكروه، وليس لأحد يد عليهم كائنا من كان، فمنهم إلينا ومنا إليهم في كل شيء، وكذا فيمن انحاش إلى حرم جدهم المذكور من الحراطين وغيرهم، ونأمر وصيفنا سعيد المذكور أن ينتقل عن عزائبهم، ويتجافى عنها بعد رده مالهم عن آخره، وعلي بالمشي إلى مكة حافيا راجلا إن ضيعت لهم قلامة ظفر منه حتى نحسك رقبتك، وأنت أخبر والسلام. في ستة وعشرين من جمادى الأولى عام واحد وعشرين ومائة وألف" [18].

رغم ذلك ظل الحرم المشيشييحتفظ لنفسه بهذا الحق المكتسب حتى بين الأمراء المتنازعين، حيث آوى الكثير من أدعياء العرش أو الثائرين من الأمراء. واستثمر على طول الوقت حمايته لتقوية نفوذه بالتشديد في الحرص على جعل الحرم من مهامه الأساسية. وبفعل هذا الحرص رأى بعض المؤرخين أن مسألة حرم الزاوية شكلت واحدة من أهم وظائف الجهاز الصوفي وأكثرها خطرا، بل تبقى في نظرهم رمزا لممارسة الزاوية لسلطة تنظيمية واضحة، خصوصا وأن هذه الممارسة استوجبت بحسب دور الحماية تنظيما محكما، عبرت عنه التشريعات الرسمية نفسها، التي ألزمت بتمكين الزاوية من تلك الوظيفة على الأقل لكونها كانت تخدم دور السلطة في الكثير من المنازعات عبر توفير ظهائر التوفير والاحترام، وما كان يترتب على اكتسابها من نفوذ وتمثل لسلطة فعلية في نطاق الزاوية [19].

وعلى الرغم من هذه الرعاية المخزنية السامية لحقوق الحرم العلمي، فإن تاريخ هذا الحرم يسجل أن حق الاستحرام به لم يكن في صالح السلطة المركزية، وإنما وظف أحيانا ضد السلطان حامي الحرم. وخير مثال على ذلك توظيف الحرم العلمي كأداة في صراع مولاي اليزيد مع والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله [20].

لجأ مولاي اليزيد إلى الحرم العلمي خوفا من بطش والده، وهذه هي ثالث مرة يستخدم مولاي اليزيد الحرم، مرة أولى لما فشلت ثورته بمساعدة قواد جيش عبيد البخاري سنة 1189 ه / 1775م،

حيث لجأ إلى حرم علي بن حمدوش بزرهون، ثم مرة ثانية حيث هرب إلى حرم مولاي إدريس بزرهون فتشفع فيه الشرفاء الأدارسة وعفا عنه والده سيدي محمد بن عبد الله [21]. ولكن مولاي اليزيد كان مصرا على انتزاع الحكم من والده، فانتقل إلى الجزائر لطلب مساعدة الأتراك، فأمر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتشديد الحصار عليه من جهة الشرق وقطع طريق العودة أمامه.

2 - احتماء مولاي اليزيد بالحرم العلمي

أثار انتشار خبر وجود مولاي اليزيد بالحدود الشرقية، مخاوف السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الذي ما انفك يستعد لكل الاحتمالات، فأمر قواده ألا يتركوا له مجالا يتحرك فيه او ممرا يتسلل منه، وعين للقيام بهذه العملية عامله القائد محمد بن خدة الشرقي الذي توجه على رأس محلة للمرابطة بناحية وجدة، ثم أتبعه بمحلة أخرى إلى تازة. واتضح أن الهدف كان هو التجسس على "خبر مولاي اليزيد، وحصره ورده للشرق"، ثم جند قوات أخرى تتكون من ألف وخمسمائة من الفرسان [22]، ووجه فرقة إلى مشارف طنجة في 12 أكتوبر 1788م، تحت إمرة قائده المنصور وكان قوامها ثلاثة آلاف رجل. كما أنزل أربعة آلاف رجل بتطوان، وانضاف إلى الجميع ألف وخمس مائة رجل بقيادة الأمير مولاي هشام، وكتيبتان بقيادة مولاي سلامة والقائد الشرادي [23]. وهكذا بلغ حجم القوات مجتمعة ما بين أربعة و خمسة آلاف رجل. هل

كان السلطان في حاجة إلى كل هذه القوات لمنع ابنه من التسلل إلى الداخل؟ أم أن تصرفه ارتقى مع حجم الخطر، الذي ساوره، فسخر قوات أكبر جعلها عهدة بين يدي أبنائه، بعدما أظهر قواد الجيش خوفا وتلكأ في مواجهته [24]؟

لم يكن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أول من تبنى هذا المنحى، حين جعل مولاي اليزيد وجها لوجه مع إخوته، بل خطة سبقه إليها أحمد المنصور السعدي عندما عين ابنه مولاي زيدان لمواجهة محمد الشيخ المأمون. وسلك نفس الطريق مولاي اسماعيل حين ثار عليه محمد العالم، فوظف ابنه أبا القاسم لصد أخيه أبي النصر. لكن ما كان يأمله السلطان سيدي محمد بن عبد الله من وراء ذلك أفضى إلى عكس النتائج المرجوة [25]، إذ لم تنل الإجراءات العسكرية من عزم مولاي اليزيد، فتسلل إلى البلاد وقصد ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش، دون أن توقفه القوات التي كلفها السلطان باعتراضه. ولم يزد هذا الأمر متاهات السلطان إلا تعقيدا وضاعف من توتره وقلقه بسبب الشكوك التي بدأت تراوده جراء التطورات المتلاحقة. فلم يعد يأمن جانب جلاسه ومقربيه. فهل فسح دخول الأمير إلى البلاد المجال لتأويلات حول تواطئ داخلي قصد النيل من السلطان؟ لكن لماذا توجه نحو الضريح المشيشي بالشمال عوض توليه وجهة الجنوب؟

أشار الضعيف إلى أن مولاي اليزيد دخل فاس على غفلة من أهلها، ودون أن تشعر به المحلة المرابطة بوجدة، ثم عبر إلى وزان وأقام بها ثلاثة أيام، ومنها قصد مولاي عبد السلام بن مشيش، وذلك في يوليوز 1788م [26]. ويبرر الناصري هذا الخيار بصعوبة التوجه إلى الجنوب ولو متخفيا بين ركب حجاج تافلالت كما كان يود أولا، لوجود المؤرخ أبي القاسم الزياني عاملا عليها فعدل عن ذلك [27]. والواقع أن مولاي اليزيد لم يكن له خيار غير البقاء خارج البلد إما بمكة أو بأحد أقطار شمال إفريقيا، بسبب الحصار الذي ضرب على الحدود، إلى أن يحين الوقت والتوجه خفية إلى ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش [28]، ويبعث بجماعة من "أشراف جبل العلم للشفاعة له عند أبيه، لكن السلطان أمر أن يأتوا به فأبى" و "تصلب وكابر" و "كشف وجه العصيان"، كما يقول الناصري [29]. وعلى الرغم من جهود الوساطة التي تكررت، ومن كتاب الأمان الذي عرض عليه [30]، فإن مولاي اليزيد لم يكن يتورع في مقابلة كلام الوسطاء بأجوبة لا تصدر عن " عاقل و لا جاهل" [31]. وبقدر ما تدل الوقائع على حدة التوتر بين الأب والابن، فإنها توحي بإحساس بالثقة شعر به مولاي اليزيد وهو يرد جميع من بعثهم سيدي محمد بن عبد الله. فهل يعزى ذلك إلى البعد عن العاصمة مراكش؟ أم لأنه استغل قدسية المكان الذي لجأ إليه [32]؟

الظاهر أنه أضفى قدسية أكبر على وجوده بالضريح، عندما ادعى أمام المحاصرين له ان خياره البقاء به، وعدم التوجه إلى أي ملاذ آخر ليس رغبة شخصية، بل تنفيذا لأمر رباني. ويبدو هذا واضحا من رده على أخيه مولاي هشام، وعلى باقي الوسطاء من الشرفاء، وكل من أراد تليين موقفه، حين جعل من بقائه بالضريح تعبيرا عن حسن طويته، وأن لجوءه إليه والعزوف عن مغادرته، وتسميه بالمهدي، إنما هو تنفيذ لوصية أوحى له بها الرسول(ص) وهو بالحرم المكي [33].

لقد استغل مولاي اليزيد الحرم المشيشي ضد المحاصرين له بهمة شديدة، والواقع أنه وظف ما كان متاحا وممكنا وسائدا في المجتمع المغربي حينذاك، من اعتقاد قوي في ما يعنيه الحرم بصفة عامة، وشجع على ذلك ما كرسه التماثل الواقع بين ما يراه الناس من تشابه في الطقوس وتطبيقات في السلوك بين الحرم العلمي والحرم المكي، إنه أمر تشكل منذ فترة طويلة وترسخ في الأذهان، بناء على ما حققه الأشراف العلميون من حظوة وامتياز بفضل قيادتهم للحركات الجهادية في مناطق متفرقة من المغرب. فقد من عليهم السعديون بهذه الخصوصية، وهي خصوصية الاحترام والتوقير التي سخرها مولاي اليزيد للإفلات من العقاب مرة، ولمواجهة والده والخصوم مرة أخرى [34]. فهل كان يريد أن يفهم الخصوم أن له تفويضا من السماء، اعتبارا لما أوحي إليه بمكة؟ أم هو تلفيق من

شرفاء جبل العلم الذين تعلقوا به وهو يعيش بينهم ورأوا في التمسك بهذا الادعاء مخرجا لتجاوز كل محنة؟ أم صدق ابن أبي محلي عندما ربط كل أزمة حكم، بالمغرب بقدوم مهدي [35]؟ وفي هذا الصدد قام مولاي اليزيد باختيار اسم محمد المهدي الحسني لنفسه، بعد عودته من المشرق ولجوئه إلى الحرم المشيشي، وبه استهل رسائله الموجة إلى بلاطات أوربا، إلى كارلوس الرابع ملك اسبانيا، وإلى مارية ملكة البرتغال، وإلى جورج الثالث ملك انجلترا.

ألم بالسلطان بسبب ما سبق كرب عظيم حتى أنه "كره كثيرا من كان معه من جلاسه" [36]، وساء ظنه بالجميع. فهل شعر السلطان بخيانة من حوله؟ وهل أدرك أن انفلات مولاي اليزيد من قبضته لم يكن ليتحقق لولا دعم الجيش والأفراد وصمت الخاصة ومؤامرة من بعض الأعوان؟ فماذا لو علم بمراسلات رجاله ممن كانوا يزودون مولاي اليزيد ببعض أخباره وأحوال البلاط [37]؟ هل كان سيطرح السؤال عن السبب الذي أجبر هؤلاء على مراوغته؟ أهو الخوف والقلق الذي سكن النفوس من سلطان هالك، وأمير مالك لا محالة؟ أم هو اللهث لنيل الحظوة والرضى طمعا للزلفى؟ أم هي شعبية مولاي اليزيد التي سطعت في السماء وملأت الافواه، وازدادت ما بين الشرفاء والقبائل وبعض المقربين لأبيه من "المتفرقين" ومن العبيد، ونجمت عن تدمر الناس من قهر جربوه

على يده؟ وأخيرا ألم يكن كل هذا هو ما قطع حبل الانتقال من عهد إلى آخر؟

في هذا الإطار، يمكن اعتبار الجيش أول من أعلن عن تدمره، فكانت النتيجة بيعة لولده مولاي علي ثم مولاي اليزيد، فرد السلطان على رؤوس الفتنة بقوة شديدة، وهو ما اعتبره لومبرييير قسوة من السلطان تجاه جيشه [38]، وكانت انتفاضة قبائل كروان ضده ومساندتها لابنه مثالا صارخا على ذلك. فهل هو رد على سياسة السلطان المالية التي قامت على زيادة التكاليف الملقاة على القبائل؟ لكن التعاطف مع الأمير لم يقتصر فقط على القبائل، بل امتد إلى الزوايا التي أوت الأمير وتسترت عليه، كزاوية والي كروان الشهير بأمهاوش [39]، وآيت يمور بالأطلس، وزاوية بني توزين بالريف، وهم شرفاء مولاي ادريس زرهون أو دار الضمانة الذين كانوا يتدخلون لصالحه كلما اشتد الخلاف بينه وبين والده [40].

لم يكن هذا كله إلا تعبيرا عن رفض واضح من طرف مولاي اليزيد لسياسة والده بنصرته للمعارضين، وبتشدده مع من يدورون في فلكه، كما صنع مع سيدي العربي بن المعطي، وسيدي علي بن أحمد اللذين نعتهما "بالحمارين"، بل ذكر سيدي العربي بن المعطي، بما صنعه السلطان بهم [41]، عندما أقدم في فبراير 1786م على هدم زاوية شرقاوة في أبي الجعد مقر جموعهم [42].

لكن هل نهج الأمير مولاي اليزيد سياسة المعارضة، ظنا منه أنها أقرب وسيلة تعجل بوصوله إلى سدة الحكم، عملا بتجميل صورته أمام من ضاقوا ذرعا بالمخزن برمته؟ أم أنه تصور أن إقامة حكم عادل رهين فقط بمخالفة والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فألف بين حاجة دنيوية وأخرى غيبية لخدمة مشروعه [43]؟

أدت مخاوف السلطان من تكاثر أنصار مولاي اليزيد إلى القيام بعدة تدابير استهدفت عزله ماديا وعسكريا، فأمر أولا بعودة القوات التي وجهها مع قائده العباس لحراسة الحدود وحماية بيوت المال بطنجة وتطوان والعرائش، ودعا ثانيا حاجبه محمد بن العربي قادوس أفندي إلى إفراغ كل بيوت أمواله ونقلها إلى مكناس، تنفيذا لقسم بألا يترك لولده مولاي اليزيد ولو "أربعة قراريط" [44]. لقد قام السلطان بهذه التدابير بعدما جرب كل السبل الكفيلة بإخراجه طوعا من الضريح بتوجيه عدد من الوسطاء والمقربين له كسيدي العربي بن المعطي حاملا "دليل الخيرات والتهليل"، وسيدي علي بن أحمد مصحوبا "بالسبحة"، أو كرها بحشد القوات ضده والتهديد بضرب الحصار حوله. ولما علم بامتناعه عن الخروج سخط عليه، وأمر أن يتلى سخطه في مساجد فاس ومكناس وطنجة والعرائش وسلا والرباط [45]، بل كتب علماء مراكش نص ذلك واصفين إياه "بقلة العقل" [46].

لكن، ما يلفت الانتباه هو الرد الذي يقابل به مولاي اليزيد وسطاء أبيه، الذين كانوا يتقدمون إليه بضمانات مادية ورمزية، حتى يخرج من الضريح بالأمان، فكان يتذرع بحجج أكثر رمزية. فقد أجاب أخاه مولاي هشام بأن توجهه إلى الضريح والمكوث به، هو امتثال لوصية الرسول (ص) إليه حين وقف على قبره، وأمره بالتسمي بالمهدي، والانتظار بالضريح مسالما إلى غاية وفاة أبيه [47].

إلا أن الرد الذي واجه به وسطاء أبيه من أفراد الحاشية أثار كثيرا من الفضول حول الخلفية التي كانت وراء موقفه العدائي ضدهم، وعزز الطرح القائل إن تذمره منهم كان منذ البداية، حين ربط خروجه من الضريح بإحضار بعض رجال أبيه وخاصته مكبلين بالسلاسل والحبال، وخاصة عامله على مراكش، ووزيره محمد العربي قادوس أفندي [48].

يظهر إذن أن مولاي اليزيد لم يكتف بمعارضته لوالده، بل عبر عن رفضه الشديد لبعض المحيطين به، وهو موقف ربما تبلور انطلاقا من الرسائل التي كان يتبادلها مع أعوان أبيه، وهو دليل على الصراع المحتدم بينه وبين أفراد حاشية السلطان وخدامه المقربين. وتطور فيما بعد إلى انتقام وتنكيل شمل كل من سولت لهم أنفسهم الوقوف في وجهه، أثناء الصراع مع والده، الأمر الذي انعكس على المخزن المركزي، كما وصف ذلك الزياني بحسرة شديدة [49]، وبرره الضعيف بالسب الذي رموه به زمان والده [50].

لم يبق أمام السلطان إلا التحرك بنفسه إلى جبل العلم لإخراج ابنه من الضريح الذي تحصن به منذ رجوعه من المشرق، وما واكب ذلك من تكاثر أتباعه ومؤيديه، وانتشار صيته بين القبائل وجيش العبيد، إلى حد طلب من والده الأنفاض والسلاح لمباغتة الإسبان بثغر سبتة. فتحرك السلطان على عجل من مراكش نحو بلاد الغرب في 27 مارس سنة 1790م، لكن وفاته المفاجئة قلبت كل مجريات الأحداث. فهل تحقق ما ردده الدجالون وصدقته العامة، أن ملك اليزيد أمر مقدر، وأن نهايته حتمية بمجرد عبوره وادي أم الربيع حسب ما تنبأ به بلا عزوز [15]؟

يذكر الزياني في "البستان الظريف"، أن السلطان لما أعيته الحيل للقبض على ولده مولاي اليزيد أرسل إليه ستة آلاف من العبيد، على رأسهم ابنه مولاي هشام. وكانت الأوامر التي تلقاها هي القبض عليه وقتل كل المتعاونين معه، لكن الابن توقف على مشارف الضريح دون أن يعمد إلى مهاجمته، فوصفه أبوه بالجبان، ونزع منه القيادة وسلمها للقائد العباس السفياني، الذي ما أن تولى زمامها حتى أشعر السلطان بخطورة الأمر، وطلب منه الإسراع بالنهوض إليه قبل فوات الأوان، فصمم العزم على التوجه إليه بنفسه لإخراجه من الحرم المشيشي، مسندا إلى قائده العباس مهمة تشديد الحراسة عليه. ولعل الجهد الذي بذله أثناء رحلته، والحمى التي ألمت به وهو لا زال بتادلة هو الذي عجل بموته على أطراف

مدينة الرباط، وعلى بعد أربع ساعات بين وادي الشراط ووادي يكم بعين الحمارة [52]، على الساعة الثالثة من يوم الأحد 11 أبريل 1790م.

لقد وصف القنصل الفرنسي دي روشي (1743 – 1798) خبر وفاته بالأمر المشؤوم [53]. أما الضعيف فأشار إلى أن السلطان تطير من أول خروجه من مراكش، عندما سقطت مظلته وهو بباب مراكش، ولما عثر فرسه وهو "بكيليز"، ولحظة وقوعه من فوق دابته وهو بوادي أم الربيع، وتأكد له سوء العاقبة بوقوف سيدي يحيى بن يوسف المدفون بشالة عليه في منامه وهو بمشرع أمضري [54]، ولمدة ثلاثة أيام شعر خلالها بوهد شديد لم تسعفه قوته للاستمرار في السير ليومه الرابع، فاستعمل العربة حتى انقطع كلامه [55].

الواقع أن تتبع الضعيف لمراحل تنقل السلطان من مراكش إلى مشارف الرباط، وتطيره مما وقع في كل حال وترحال، ليس بريئا بل تعبيرا عن قلق شخصي ومعاناة نفسية شديدة، لرجل مسن لم يكن في مقدوره القيام بآخر مواجهة عسكرية للحفاظ على سلطانه، بعدما تعذر عليه الوقوف معه على حل لعناده وتنطعه، وهي قناعة استشعرها من كان حوله من المستشارين. ومن هنا كانت مفاجئة الجميع كبيرة وكان ارتباكهم حقيقيا، إذ وقع الموت قبل حسم أمر ولده اليزيد. وفي نظرنا لم تكن أكثر مأساوية من وفاة مولاي اليزيد، لا لأن ملابساتها لا زالت غامضة إلى اليوم، بل لأن كل هذه

التطورات وقعت في لحظة تاريخية فارقة أجهزت على حلم إصلاح وتحديث تعلق به سيدي محمد بن عبد الله منذ البداية، وكرست مرة أخرى الفرقة بين من بقي من أبنائه الأمراء.

لقد بقيت وفاة السلطان طي الكثمان، إلا عن أقرب الناس إليه، كطبيبه الخاص والقايد العياشي المكلف بعربته، ومحمد بلعربي قادوس أفندي الذي تعمد حمل جثمانه في هودج لإخفائه عن الأنظار [56]، ولم يجهر هذا الأخير بالأمر إلا في صباح اليوم الموالي عندما أجمعت بطانته والحاشية للقيام بمراسيم دفنه وسط قصره بالعاصمة الرباط. ويعلق الزياني على اللحظات الأخيرة من حياة السلطان بالقول، إنه لما أحس بدنو أجله رغب في مصالحة ابنه مولاي اليزيد [57]، ربما عملا بقول الرسول :"اذكروا أمواتكم بالخير" أو اعتبارا لكونه جزءا من المخزن، على الرغم من كون الأمير حسب المصادر الإسبانية، كان سبب العلة التي ألمت بوالده مدة سنة وأنهت حياته، وأفسحت المجال لبيعته سلطانا جديدا على البلاد.

يعد مولاي اليزيد من السلاطين العلويين القلائل الذين جهروا بالحرب ضد الأوربيين من الخصوم، إذ قام وحده، ومنذ الوهلة الأولى لتسلمه زمام الحكم بالحرم المشيشي، خلفا لوالده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، بمهاجمة الثغور المحتلة من طرف اسبانيا، وبسحق أهم رجالات المخزن، لإقصاء من اعتبرهم أشد

الأعداء. ويظهر أنه بسبب قصر مدة حكمه التي امتدت من 1790 إلى 1792م، لم يلفت اهتمام المؤرخين والباحثين.وصحيح لم يكتب لمولاي اليزيد العيش طويلا، إذ مات وهو في سن الرابعة والأربعين، كانت مدة اثنين وعشرين شهرا التي قضاها على كرسي الملك، فاصلة بين بيعته بالحرم العلمي ووفاته بمراكش وهو في عقده الرابع متأثرا بإصابات في أعلى فخذه. لقد كان خروج مولاي اليزيد من الحرم المشيشي واتجاهه من الشمال إلى الجنوب وبالضبط نحو عاصمة والده إيذانا بمرحلة جديدة، فاصلة في تاريخ المغرب، حددت كل التطورات اللاحقة، فقد كانت مقدمة لمعركة حاسمة ضد أخيه مولاي هشام أصيب فيها مولاي اليزيد بجروح قاتلة كانت مقدمة لوفاته.

الهوامش

[1]- أحمد التوفيق، **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850 – 1912)**، البيضاء، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1978، جزآن، ج 2، ص. 92.

[2]- عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري**، سلا، 1989، ص. 189.

[3] -El Mansour (M), "The Sanctuary (Hurm) in PrecolonialMorocco", in ***The Shadow of the Sultan, Culure, power, and Politics in Morocco***, Edited by RahmaBourqia and Susan Gilson Miller, Library of Congress, The United States of America, 1999, p. 52.

[4]- محمد عمراني، مادة "الحرم العلمي"، في **معلمة المغرب**، ج 10، نشر مطابع سلا، سلا 1998، ص. 3387.

[5]- علي الريسوني، **رجال ومواقف : دفاعا عن وحدة الأمة**، مطبعة الشويخ، تطوان، الطبعة الأولى 1982م، ص. 3 وما بعدها.

[6]- محمد العمراني، **مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب، دراسة تاريخية لمسألة الاحتماء بالمؤسسات الدينية والاجتماعية خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة**، مطبعة آنفو- برانت، فاس، 2014، ص. 126.

[7]- محمد العمراني، **مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب**...، م.س، ص. 126.

[8]- محمد عمراني، مادة "الحرم العلمي"، في **معلمة المغرب**، ج 10، نشر مطابع سلا، سلا 1998، ص. 3387.

[9]- محمد العمراني، **مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب**...، م.س، ص. 127.

[10]- محمد عمراني، مادة "الحرم العلمي"...، م.س، ص. 3387.

[11]- المرجع والصفحة نفسها.

[12]- سليمان بن محمد الحوات، **الروضة المقصودة والحلل المدودة في مآثر بني سودة**، دراسة وتحقيق عبد العزيز تيلاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1994، ج 2، ص. 481 – 490.

[13]- المصدر نفسه، ج 2، ص.480.

[14]- الطاهر بن عبد السلام اللهيوي، **كتاب الحصن المتين للشرفاء أولاد مولاي عبد السلام مع أبناء عمهم العلميين**، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى 1993، ج 2، ص. 292.

[15]- محمد العمراني، **مؤسسة الحرم في تاريخ المغرب...**، م.س، ص. 128.

[16]- محمد عمراني، مادة "الحرم العلمي"...، م.س، ص. 3387.

[17]- محمد العمراني، **مؤسسة الحرم...**، م.س، ص. 129.

[18]- أورد هذه الوثيقة الدكتور محمد العمراني في كتابه الموسوم **بمؤسسة الحرم في تاريخ المغرب...**، م.س، ص. 130.

[19]- الشاذلي، **التصوف والمجتمع...**،م.س، ص. 188.

[20]- عاش السلطان سيدي محمد بن عبد الله ما بين 1722 و 1790م، بويع سلطانا وهو في سن الخامسة والثلاثين، وحكم لمدة ثلاثة وثلاثين سنة، انظر جورج هوست، **أخبار وتاريخ الملك محمد بن عبد الله**، ترجمة سليم رشاد وعبد الغفار سويريجي، الطبعة الأولى 2001.

[21]- محمد عمراني، **الشرف والمجتمع والسلطة السياسية، الشمال الغربي المغربي نموذجا من القرن 10 إلى 13 ه (16 – 19م)**، طبعة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2001، ص. 437.

[22]- محمد بن عبد السلام الرباطي الضعيف، **تاريخ الضعيف**، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، نشر دار المأثورات، الطبعة الأولى، 1986، ص. 196.

[23]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا أيام حكم السلطان مولاي اليزيد (1790 م – 1792م)**، طبعة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 2013، ص. 126.

[24] -Ali Chenoufi, ***Les Correspondances des consuls du Royaume du Danemark, dans les états du Maghreb au cours des XVIII et XIX siécles***, centre universitaire, 2005, Tunis, pp.418 – 423.

[25]- انظر عمل،محمدجادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز الدار البيضاء، سلسلة أبحاث، عكاظ، 2011.

[26]- الضعيف، م.س، ص.196.

[27]- يقول الناصري :" قدم مولاي يزيد بن محمد في ركب الحاج الفيلالي ولما كان بقرية صمغون سأل عن أحوال البلاد، وأهلها ومن المتولي عليها، فأجيب

بقاسم الزياني، فلما سمع مولاي اليزيد ذلك، سقط في يده ووجم (...) ثم التفت إلى شيخ الركب (...) فقال : وحيث أن الزياني بهذه البلدة فلا يستقيم لي معه أمر، و لا يخيط بيني وبين والدي بخيط أبيض"

أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، منشورات دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج 8، ص. 63.

[28]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا...**، م.س، ص. 128.

[29]- الناصري، **الاستقصا**، ج 8، م.س، ص. 64.

[30]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا...**، م.س، ص. 128.

[31]- أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف**، تحقيق رشيد الزاوية، نشر مركز الدراسات والبحوث العلوية، مطبعة المعارف الجديدة، 1992، ص. 478.

[32]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا...**، م.س، ص. 128.

[33]- Ali Chenoufi, ***Les Correspondances des consuls…***op.cit, pp. 422 – 423.

[34]- **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1998، المجلد العاشر، حول مادة الحرم، انظر على التوالي، محمد المنصور، ص. 3385 – 3387 و محمد عمراني، ص. 3387 – 3388.

[35]- عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوربا بين القرنين الخامس والثامن عشر، (مسألة التجاوز)**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 2000، ص. 251.

[36]- الضعيف، م.س، ص. 199.

[37]- الضعيف، م.س، ص.198.

[38] -Lempriee (W), ***Voyage dans l'empire de Maroc, et le royaume de fez, fait pendant les années 1790 et 1792***, traduit de l'anglais par M.de saint-suzanne, paris, an IX, 1801, p.87.

[39]- الناصري، ج 8، م.س، ص. 138، كذلك، المعلمة، **مادة امهاوش**، ج 3، ص. 390.

[40]- أحمد الوارث، محاولة المولى اليزيد العلوي إرساء طبائع ملك جديدة في البلاد، **مجلة المناهل**، العدد 70/69، يناير 2004، ص.642.

[41]- الضعيف، م.س، ص.188.

[42]- الضعيف، م.س، ص.198،الناصري، ج 8، م.س، ص. 59.

[43]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا**...، م.س، ص. 130.

[44]- الضعيف، م.س، ص.199.

[45]- الضعيف، م.س، ص.199.

[46]- تبرأ السلطان سيدي محمد بن عبد الله من ابنه اليزيد، وعلق نص البراءة منه، بمكة المكرمة، والحجرة النبوية، وببيت المقدس، وبضريح سيدنا الحسين بمصر، وبضريح مولاي علي الشريف، وضريح مولاي ادريس بفاس، وضريح مولاي ادريس بزرهون. انظر دبوز، م.س، ص. 131.

[47]- الضعيف، م.س، ص.204.

[48]- Ali Chenoufi, ***Les Correspondances des consuls…***op.cit, pp.417 – 418.

[49]- أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى، في أخبار المغرب برا وبحرا**، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، طبعة 1991، ص. 139.

[50]- الضعيف، م.س، ص.201.

[51]- وهذا الدجال حسب الضعيف هو الحاج بلا عزوز، الذي كذبه مولاي اليزيد عندما خاض في ماء أم الربيع وحرك فيه برجله، يوم الأربعاء 25 يناير 1792، وهو يردد أين هو قول مراكش وهذا السفيه بلا عزوز، انظر الضعيف، م.س، ص. 133 – 212.

[52]- الضعيف، م.س، ص.200.

[53]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا**...، م.س، ص. 133.

[54]- الضعيف، م.س، ص.200.

[55]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا**...، م.س، ص. 133.

[56]- عبد العزيز دبوز، **المغرب واسبانيا**...، م.س، ص. 134.

[57]- أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف**...م.س، ص. 357 – 409.